من أساليب التفكير

التبرير الجدلي

للأستاذ زكريا إبرهيم

« للكاتب الأمريكي جيمز هارفي روبنسون رسالة قيمة عرض فيها لأساليب التفكير المختلفة ، مبيناً الدور الذي يؤديه كل في تكوين الحضارة الانسانية . ونحن نعرض في هذا المقال لواحد من تلك الاساليب محاولين أن نكشف عن الاصل فيه ، على ضوء علم النفس الحديث »

من أساليب التفكير المتنوعة أسلوب يطلق عليه علماء النفس المحدثون اسم « التبرير العقلي » أو الجدلي . والأصل في هذا الضرب من التفكير أن يعرض أحد لمناقشة عقائدنا وآرائنا ؛ فإننا عندئذ نعمد إلى تبرير هذه الآراء والمعتقدات بأدلة عقلية نصطنعها من أجل مواصلة الاعتقاد بتلك الآراء . وقد يحدث أحياناً أن نغير آراءنا وأفكارنا دون أن يكون ثمة مؤثر خارجي ، ولكن إذا حاول أحد أن يثبت لنا خطأنا ، فإننا نزداد تمسكا بهذه الآراء التي ننادي بها ونمعن في التعصب لها والتعلق بها . ونحن في العادة متسرعون في تكوين آرائنا ومعتقداتنا ، ولكننا نجد أنفسنا حريصين على هذه الآراء والمعتقدات ، حينما يحاول أحد أن ينتقص من قيمتها ، أو أن يشككنا في صحتها . ومن الواضح أن الأفكار نفسها ليست هي الشيء العزيز علينا ، وإنما هو تقديرنا لذواتنا وحرصنا على كرامتنا الشخصية . فإذا كنا نميل بطبيعتنا إلى أن نتعصب لشخصنا وأسرتنا ومجتمعنا ومعتقدنا ، فما ذلك إلا لأن في هذا ذوداً عن كرامتنا الشخصية . وقد تشتد الهجمات الموجهة إلى عقائدنا وأفكارنا ، فنضطر إلى التسليم ، ولكن يندر أن نعترف بالهزيمة « فالسلم — في العالم العقلي على الأقل — يجيء دائماً بغير نصر حاسم »

وقلما يكلف الناس أنفسهم عناء البحث عن الأصل في معتقداتهم التي يحرصون عليها ويتمسكون بها ، فإن الحقيقة أننا ننفر بطبيعتنا من القيام بهذا العمل . . إننا نحب أن نثبت على العقيدة التي اعتدنا أن نسلم بأنها هي الحق ؛ فإذا ما أثير حولها الشك ، رحنا نبحث هنا وهناك عن حجج معقولة تبرر مواصلتنا التمسك بها ، ولهذا فإن الجانب الأكبر مما نطلق عليه اسم «الاستدلال» أو التفكير المنطقي ، ينحصر في البحث عن حجج وأدلة تبرر ثباتنا على المبادئ التي اعتدنا أن نسلم بصحتها

أما الأسباب « الحقيقية » لمعتقداتنا وآرائنا ، فهي في الحقيقة خافية عنا ، كما هي خافية عن غيرنا ، والذي يحدث في واقع الأمر هو أننا نشب على الآراء التي وجدنا مجتمعنا يأخذ بها . ونحن نتشرب هذه الآراء من البيئة التي نعيش فيها عن طريق لاشعوري ؛ فالجماعة التي نحيا بين ظهرانيها هي التي تهمس في آذاننا دائماً أبداً بهذه الآراء والمعتقدات . ولما كانت هذه الآراء أو الأحكام وليدة الإيحاء (لا التفكير المنطقي) ، فإنها تبدو واضحة تمام الوضوح ، حتى أن أي ظل من الشك يلقى حولها ، يثير في الناس الدهشة والاستغراب . والواقع أننا إذا حاولنا أن نناقش رأياً من الآراء فوجدنا أنفسنا بإزاء فكرة تبدو واضحة بينة حتى أن مجرد التعرض لمناقشتها يعتبر في نظر الناس عملا غير مرغوب فيه ، فإن هذا الرأي لا بد أن يكون عبارة عن فكرة تتنافى مع العقل ، وبالتالي لا تستند إلى حقيقة ثابتة بينة .

أما الآراء التي هي وليدة الخبرة والتجربة ، أو التفكير الصائب النزيه ، فهي — على العكس من ذلك — لا تتصف بهذا « اليقين الأولي » Primary certitude . وفي هذا الصدد يروي روبنسون أنه حينما كان حدثاً صغير السن ، سمع جماعة من الناس يتناقشون في مسألة خلود النفس ، فاستثاره الشك الذي أظهره بعضهم حول هذه الحقيقة . وهو يرد ذلك بقوله إنه حينما يعود اليوم ببصره إلى الوراء ، فإنه يرى بوضوح أنه لم يكن معنياً بذلك الموضوع في ذلك الحين ، بل أنه يقيناً لم يكن يعرف دليلا واحداً صحيحاً يثبت به هذا المعتقد الذي يتعصب له . ولكن على الرغم من أنه لم يكن معنياً بالموضوع من قبل ، وعلى الرغم من أنه لم يكن له عهد بالبحث في مثل هذه المسائل ، فإنه مع ذلك لم يتردد في أن يظهر غضبه واستياءه حينما وجد آراءه ومعتقداته توضع موضع البحث والمناقشة .

وهذا التأييد التلقائي spontaneous لآرائنا السابقة وأفكارنا المبتسرة ؛ أو بعبارة أخرى هذا البحث عن الأدلة « المعقولة » التي تبرر معتقداتنا المألوفة وآراءنا التقليدية ، هو ما يُعرف عند علماء النفس المحدثين باسم « التبرير الجدلي » rationalizing ؛ وهو بلا ريب ليس سوى اسم جديد لشيء قديم

جداً . وهذه الأدلة « المعقولة » هى بطبيعة الحال وليدة التفضيل الشخصى والأحكام السابقة ، فهى إذن لا تمت بصلة إلى الرغبة الصادقة فى البحث عن معرفة جديدة أو فى التسليم بحقائق جديدة

وإذا نظرنا الآن إلى أحلام يقظتنا Reveries وجدنا أننا كثيراً ما نشغل أنفسنا فيها بتبرير ذواتنا . ومن الواضح أن السبب فى ذلك هو أننا لا نستطيع أن نحتمل الشعور بأننا مخطئون على الرغم من أن الأدلة كلها قائمة على ضعفنا وكثرة أخطائنا . وتبعاً لذلك فإننا نضيع وقتاً كبيراً فى البحث عن ظروف خارجية نرجع اليها أخطاءنا مثل سوء الحظ وانعدام التوفيق وعدم مواتاة الظروف لنا ، ونجتهد فى أن نُسقط على الآخرين (وكثيراً ما يكون ذلك بمهارة فائقة) أسباب سقوطنا وخيبتنا . فالتبرير الجدلى إذن هو عبارة عن تبرئة النفس حينما يتهمنا الناس (أو يتهمون جماعتنا) بالخطأ أو سوء الفهم .

وليس من شك فى أن حبنا لذواتنا ، إنما هو العامل الحى الذى يكمن من وراء كل تبرير جدلى . فهذا الضمير الذى نعبر عنه بحرف الياء (ى) هو فى الحقيقة جوهر الحياة الإنسانية ؛ هو حرف صغير لا يضيره أن تلحقه بأى لفظ كائناً ما كان ، لأنه لا يفقد قيمته على أى حال ، يستوى فى ذلك أن تقول بيتى ، عقيدتى ، بلادى ، إلهى ... إلخ . فنحن لا نغضب فقط حينما يخبرنا أحد بأن ساعتنا غير مضبوطة ، أو أن سيارتنا ليست جيدة ، وإنما نغضب أيضاً إذا قال لنا أحد إن نطقنا لاسم « ابكتاتوس » غير صحيح ، أو إن رأينا عن تاريخ سارجون الأول بعيد عن الصواب .

وهذا الشعور نفسه كثيراً ما نجده عند الفلاسفة والعلماء أنفسهم إذا كانوا بصدد مسألة يدخل فيها حبهم لذواتهم amour propre فإن كثيرا من المؤلفات الجدلية ، لم تكتب إلا لمواجهة خصومة أدبية — وعلى الرغم من أن بعض هذه المؤلفات قد ينطوى على استدلالات تبدو سليمة لا غبار عليها ، فإنه من المحتمل أن تكون هذه الاستدلالات مجرد تبريرات جدلية ترجع فى نهاية الأمر إلى بواعث نفسية . وإذن فإن من الممكن أن يُكتب تاريخ الفلسفة واللاهوت فى عبارات الكبرياء المجروحة ، والخصومات المذهبية ، وضروب العداء المستحكمة بين الطوائف ويكون على هذه الصورة أصدق تعبيرا مما لو كُتب على الطريقة المألوفة . وإننا لنعرف أن ملتون قد كتب مبحثه عن الطلاق نتيجة للمتاعب الكثيرة التى لاقاها بعد زواجه من تلك الفتاة التى كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً . وكذلك نعرف أيضاً أنه لم يكتب كتابه المشهور المعروف باسم : Areopaqitica إلا حينما اتهم بأنه رائد مذهب جديد هو مذهب المُطلَّقين ؛ فكتب كتابه هذا لكى يثبت أن من حقه أن يقول ما يعتقد أنه الصواب ؛ وبالتالى لكى يثبت حرية الصحافة والتأليف فى إعلان الحق .

واليوم ، تتردد لدى بعض الكتاب والمفكرين فكرة مؤداها أنه من المحتمل أن تكون كل معارفنا التى حصلناها ، فى علم الاجتماع ، أو فى الاقتصاد السياسى ، أو فى الأخلاق ، إبان الأجيال الماضية ، مجرد تبريرات عقلية قد يطرحها الجيل المقبل . وقد وصل المفكر الأمريكى جون ديوى بالفعل إلى هذه النتيجة فيما يتعلق بالفلسفة ؛ واستطاع فبلن Veplen وغيره من المؤلفين أن يكشفوا عما فى الاقتصاد السياسى التقليدى من آراء مبتسرة وافتراضات غير مدركة . واليوم يأتى عالم اجتماعى ايطالى يدعى « ڤلفريدو پاريتو » Vilfrido فى كتاب ضخم له عن الاجتماع العام ، فيكرّس مئات الصفحات ، لكى يثبت هذه القضية العامة فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية جميعا . وهذه النتيجة التى توصل إليها ، قد تعتبر فى نظر الأجيال المقبلة إحدى المكتشفات العظمى لعصرنا الحديث . وليس بدعاً أن يكون ذلك كذلك ، فإن الحقيقة أنه كما كانت علوم الطبيعة المختلفة قبل بداية القرن السابع عشر مجرد ضروب مختلفة من التبريرات العقلية Rationalizations التى تتفق مع المعتقدات الدينية السائدة ، فكذلك العلوم الاجتماعية أيضا قد بقيت — حتى إلى يومنا هذا — مجرد تبريرات عقلية تتفق مع العوائد والعقائد المتقبلة بغير نقد أو تمحيص .

* * *

من هذا كله يظهر لنا أنه إذا كنا بصدد فكرة قديمة يسلم بها الناس أجمعون ، فإن هذا لا يمكن أن ينهض دليلا على صحة هذه الفكرة ، بل هو — على العكس من ذلك — أدنى إلى أن يكون دليلا على أنه من الواجب أن نفحص هذه الفكرة بعناية ، على أنها مثال محتمل للتبرير الجدلى .

زكريا ابراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية

« مصر الجديدة »